الرحمة
في خطاب النبي ﷺ مع المخالف
وأثرها على المدعوين

إعداد:
د. مصطفى بن عبدالرحمن البار

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

المبحث التمهيدي

أهمية البحث:

تتأكد وتزداد أهمية الخطاب المتسم بالرحمة، وتأثيره عندما يكون مرتكزًا على قيم وتوجيهات ربانية، التي من المتوقع أن يسعى بقدر الإمكان للامتثال والعمل بها الدعاة والمثقفون؛ لمحاولة تحقيق تواصل فعّال يفضي إلى التقارب والتأثير الإيجابي على المدعوين، بمختلف شرائحهم وتوجهاتهم من جهة، والإسهام في معالجة ما قد يحدث من ممارسات خاطئة، وسلوكيات وأفعال مجانبة للصواب، وتصحيح ما يروج له من مفاهيم مغلوطة، تتهم الإسلام وأتباعه بالعنف والقسوة وفقدان الرحمة من جهة أخرى.

وبالإمكان الإشارة إلى أن حاجة الناس اليوم للعودة إلى الماضي بمعينه الصافي، والنهل من معطيات التراث الإسلامي الأصيل، واستخلاص نماذج يقتدى بها، لا تقل بل تفوق أهمية عن الحاجة إلى معطيات الحضارة المعاصرة، بإنجازاتها وإبداعاتها المتنوعة.

وفي سيرة نبي الهدى والرحمة محمد بن عبدالله ﷺ القدوة الحسنة، فقد رأى الناس وقتئذٍ تلك الصفة الرائعة مطبقة في شتى جوانب حياتهم، وبالإمكان أن يراها ناس اليوم حال حرصهم على التعرف عليها، والتأسي بها، وللمشاركة في معالجة ما تمت الإشارة إليه، ولأهميته، والحاجة إليه، فقد تم اختيار هذا الموضوع تحت عنوان: الرحمة في خطاب النبي ﷺ مع المخالف، وأثرها على المدعوين، حيث سنتطرق إلى عدد من النقاط المشار إليها في خطة البحث.

مشكلة البحث:

إن التدرب على اختيار الأسلوب المناسب المتسم بالرحمة عمومًا في مخاطبة الناس، وإرشادهم، والتواصل معهم في مختلف الظروف والمواقف من ناحية، والسعي لمعالجة ما يخالفه وينافيه من خطاب القسوة، والتوتر، والعنف، ومجانبة الآداب المعتبرة مع المخالفين والمناوئين وغيرهم من ناحية أخرى؛ يعد من الأمور المهمة، والجديرة بالملاحظة والبحث والتقييم، وخاصة ما يتعلق بجانب الرحمة مع المخالف.

الدراسات السابقة:

من خلال التتبع والبحث لم أجد دراسة مستقلة تناولت هذا الموضوع «الرحمة في خطاب النبي ﷺ مع المخالف، وأثرها على المدعوين» على الوجه الموجود في هذا البحث، وإنما توجد العديد من الدراسات والأبحاث المهمة في بابها، ومنها ما يلي:

- الرحمة في حياة الرسول ﷺ[1]، حيث جاء الباب الأول عن الرحمة في رؤية الرسول ﷺ، وتضمن ثلاثة فصول، أحدها الرحمة في الكتاب والسنة، والباب الثاني عن رحمته ﷺ بالمسلمين، وضمنه خمسة فصول عن: الرحمة بالضعفاء، بالمخطئين، بالأمة في جانب العبادات، بعموم الأمة، والفصل الأخير رحمته ﷺ بالمسلمين حال الموت وبعده، وجاء الباب الثالث عن رحمته ﷺ بغير المسلمين، وضمنه ستة فصول: نظرة الإسلام إلى النفس الإنسانية، رحمته بغير المسلمين في المجتمع الإسلامي، في تجنب الحرب، في أثناء الحرب، بالأسرى، والفصل الأخير: رحمته ﷺ بزعماء الأعداء، ثم الباب الرابع: شبهات وردود، والباب الخامس والأخير: رؤية غير المسلمين للرحمة.
- مظاهر الرحمة للبشر في شخصية النبي محمد ﷺ[2]، وتضمن ثمان محاضرات قيمة ومتنوعة، أُبرزت من خلالها صفة الرحمة في شخصيته ﷺ بأسلوب علمي أكاديمي.
- الرحمة في سيرة المصطفى ﷺ[3]، وجاءت في ثلاثة فصول، الأول: وصايا الرسول ﷺ القولية والعملية المتصلة بالرحمة، والثاني: آثار وصايا وتطبيقات الرسول ﷺ في الناس من حوله، والثالث: نتائج الدعوة إلى التراحم وتطبيقها عمليًا ....
- الرسول ﷺ الإنسان إنسانيته مع غير المسلمين[4]، وتضمن مقدمة واثنا عشر عنوانًا، تطرق فيها إلى إنسانيته ﷺ في الإحسان إلى

(١) الرحمة في حياة الرسول ﷺ، أ. د. راغب السرجاني، رابطة العالم الإسلامي: المركز العالمي للتعريف بالرسول ﷺ ونصرته الرياض، ط: الثانية، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.
(٢) مظاهر الرحمة للبشر في شخصية النبي محمد ﷺ، محاضرات: د. سارة آدم، إعداد: أ. د. زيد العيص، رابطة العالم الإسلامي: المركز العالمي للتعريف بالرسول ﷺ ونصرته الرياض، ط: الثالثة، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.
(٣) الرحمة في سيرة المصطفى ﷺ، أ. د. حصة الزيد، دار التدمرية، الرياض، ط: الأولى، ١٤٣٥هـ ٢٠١٤م.
(٤) الرسول الإنسان إنسانيته مع غير المسلمين، د. صالح الزهراني، ديبونو للنشر، الأردن، ط: الأولى، ٢٠١١م.

غير المسلمين، أدب الدعوة، أدب الجوار، أدب الحوار، بث الأمن، العدل، التواضع، الأمانة، الصلة الاجتماعية، تقدير الكرامة الإنسانية، والحادي عشر: إنسانية الرسول ﷺ في الرحمة بغير المسلمين، وأخيرًا: إنسانية الرسول ﷺ في الوفاء مع غير المسلمين.

وسوف تتم الاستفادة منها بمشيئة الله في الجوانب ذات العلاقة بموضوع الدراسة الحالي

أهداف البحث:

يهدف البحث بصفة رئيسة إلى:

أولًا:: التعريف بجوانب الرحمة في خطاب النبي ﷺ مع المخالف أيًّا كان، وآثار ذلك.

ثانيًا: إبراز تعامله ﷺ مع مختلف الظروف والمواقف الحياتية، والتي من المحتمل أن يمر بها الدعاة والمسلمون عمومًا في أي وقت وزمان.

ثالثًا: محاولة تقديم دراسة تبرز الخطاب المقرون بالرحمة، وأثره في نشر الإسلام، والمساعدة في تصحيح وتكوين الصورة الذهنية الصحيحة عنه وعن أتباعه.

رابعًا: السعي لتزويد المكتبة بالبحوث المؤصلة، وليكون لبنة ضمن بقية ما سيقدم من أبحاث في هذا المؤتمر المهم عن الرحمة في الإسلام، وبخاصة خلال هذه الفترة.

منهج البحث

تعد هذه الدراسة من الدراسات النظرية، وسيتم بمشيئة الله التعامل مع المادة العلمية لهذا البحث، وفق المنهج العلمي المتبع في مثل هذه

الدراسات، والذي يستخدم المنهج الاستقرائي والاستنتاجي، بحيث يتم حصر الجزئيات والوقائع وفحصها، ودراستها بواسطة الطريقة الاستقرائية، والاستنتاجية لتنظيم المعلومات المتوافرة في قالب معين، لمساعدة الباحث على استنباط نتائج صحيحة، تزوده بالحلول والمقترحات[١].

التعريف بمفردات عنوان البحث:

- الرحمة: مفهوم الرحمة في اللغة يدل على الرقة والرأفة[٢] والعطف والمغفرة، فيقال رحمه: إذا تعطف عليه ورق له[٣] وتأتي الرحمة بمعان أخرى: كالنبوة، والإسلام، والرزق، والغيث...[٤] والمعنى المراد في هذا البحث هو ما يدل على العطف والرأفة، والمغفرة والرقة، كما سيتضح لاحقًا بمشيئة الله ﷻ، مع الإشارة إلى أن الرحمة لا تقف من الناحية العملية عند حدود الشعور بذلك، بل تتجاوزه إلى العمل بما تقتضيه، ولذا عرفت الرحمة بأنها صفة تقتضي إرادة إيصال الإحسان والخير والمصالح للناس[٥].

(١) كتابة البحث العلمي صياغة جديدة، عبدالوهاب أبو سليمان ٦٤، دار الشروق، ط: السادسة، ١٤١٦هـ، وانظر: المدخل إلى إعدد البحوث والرسائل الجامعية في العلوم الاجتماعية أ. د. عبدالله الوليعي، ٣٥، توزيع مكتبة جرير، ط: الأولى، ١٤٣٣هـ، والمدخل إلى البحث في العلوم السلوكية، د. صالح العساف ٢٠٤، شركة العبيكان للطباعة الرياض، ط: الأولى، ١٤٠٩هـ.

(٢) وقيل: إن الرأفة أخص وأرق من الرحمة، ولا تكاد تقع في الكراهة، بينما قد تقع الكراهة للمصحلة في الرحمة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١٧٦/٢، تحقيق: طاهر الزاوي وزميله، المكتبة العلمية بيروت، ط: د، ١٣٩٩هـ، ولسان العرب، ابن منظور ١١٢/٩، دار صادر بيروت، ط: الثالثة، ١٤١٤هـ.

(٣) انظر: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس ٤٩٨/٢، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الفكر، ط: د، ١٣٩٩م، ومختار الصحاح، الرازي ١٢٠، تحقيق: يوسف محمد، المكتبة العصرية الدار النموذجية بيروت، ط: الخامسة، ١٤٢٠هـ، ولسان العرب، ابن منظور ٢٣٠/١٢، والقاموس المحيط، الفيروزآبادي ١١١١، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد العرقسوسي، مؤسسة الرسالة بيروت، ط: الثامنة، ١٤٢٦هـ.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٢٣٠ ٢٣٢.

(٥) انظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ٣٤٧، تحقيق: صفوان الداوودي، دار

- خطاب: الخطاب الكلام، يقال: خاطبه في الأمر: حدثه بشأنه[1] وفي القرآن الكريم: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص:٢٠]، وقيل في تفسيره بأنه: «الكلام المخلص الذي ينبه المخاطب على المقصود من غير التباس... وقيل: هو الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مخل، ولا إشباع ممل، كما جاء في وصف كلام الرسول ﷺ»[2] وهو المراد في هذا البحث.
- المخالف: المخالف والمخالفة أن يسلك طريقًا غير طريق الآخر في قوله أو حاله، وخالفه إلى الشيء عصاه إليه بعد ما نهاه عنه، سواء كانت مخالفة تضاد أو لفظ وتنوع[3] وسواء عن طريق الخطأ المقصود أو غير المقصود، وهو ما يشمله البحث.
- أثر: الأثر يأتي بمعنى النتيجة والعلامة، وهو الحاصل من الشيء[4] وسيتم في ثنايا هذا البحث بمشيئة الله ﷻ، الإشارة إلى بعض النتائج والآثار الإيجابية على المدعوين من المسلمين وغيرهم، وكيف أثر ذلك في مواقفهم.

القلم، الدار الشامية دمشق، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٢هـ، وكتاب التعريفات، الجرجاني ١١٠، تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤٠٣هـ.

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى وآخرون) ٢٤٣/١، دار الدعوة، ط: د، ت: د، والقاموس الفقهي لغة واصطلاحًا، د.سعدي أبو جيب، ١١٨، دار الفكر. دمشق، ط: الثانية، ١٤٠٨هـ، وإستراتيجات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبدالهادي الشهري ٣٤، دار الكتاب الجديد المتحدة بيروت، ط: الأولى، ٢٠٠٤م.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ٢٦/٥، تحقيق: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: الأولى، ١٤١٨هـ، وانظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، ١٧٣/٢١، ٣، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط: الأولى: ١٤٢٠هـ، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦٢/١٥، تحقيق: أحمد البردوني وزميله، دار الكتب المصرية القاهرة، ط: الثانية، ١٣٨٤هـ.

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٩٠/٩، والمفردات، الراغب ٢٩٤، والقاموس المحيط، الفيروزآبادي ٥٥٢، وفقه التعامل مع المخالف، د. عبدالله الطريقي ١٦ ١٧، دار الوطن الرياض، ط: الأولى ١٤١٥هـ.

(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ٩، والمفردات الراغب الأصفهاني ٦٢.

- المدعوين: المدعو من توجه إليه الدعوة ويخاطب بها، وهو الإنسان عموما[1] والمراد به هنا المدعو من المسلمين وغير المسلمين في العهد النبوي.

خطة البحث:

المبحث الأول: الإشارة إلى أهمية ومكانة الرحمة في الإسلام، ويتضمن:

أولًا: الإشارة إلى ما ورد من نصوص الرحمة في الكتاب والسنة.

ثانيًا: الإشارة إلى أن الأمر بالرحمة والإحسان لا يتعارض مع النهي عن الموالاة.

المبحث الثاني: الرحمة في خطاب النبي ﷺ مع المسلمين، ويتضمن:

أولًا: رحمته ﷺ ورأفته في خطابه للمتكلم في الصلاة.

ثانيًا: رحمته ﷺ في خطابه للأعرابي وما حصل منه في المسجد.

ثالثًا: رحمته ﷺ في خطابه وتوجيهه بمراعاة أحوال الناس بشأن إطالة الصلاة.

رابعًا: رحمته ﷺ في خطابه للنفر الذين أرادوا التشديد على أنفسهم.

خامسًا: رحمته ﷺ في خطابه مع المخالف في نهار رمضان.

سادسًا: رحمته ﷺ في خطابه لمن طلب التطهير من الذنب.

(١) انظر: أصول الدعوة، عبدالكريم زيدان ٣٧٣، مؤسسة الرسالة، ط: التاسعة، ١٤٢١هـ، والمدخل إلى علم الدعوة، د. محمد البيانوني ٤١-٤٢ و١٦٩، مؤسسة الرسالة بيروت، ط: الثالثة، ١٤٣٤هـ، والأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية دراسة تأصيلية على ضوء الواقع العاصر، د. عبدالرحيم المغذوي ٥٧٤ ٥٧٦، دار الحضارة للنشر والتوزيع الرياض، ط: الثانية، ١٤٣١هـ.

سابعًا: رحمته وحلمه ﷺ في خطابه بمن آذاه بالفعل والجفاء في المخاطبة.

المبحث الثالث: الرحمة في خطاب النبي ﷺ مع غير المسلمين، ويتضمن:

أولًا: رحمته ﷺ في خطابه وشفقته بالمخالفين، وحرصه على هدايتهم.

ثانيًا: رحمته في خطابه ﷺ مع ثمامة بن أثال ونتائج ذلك.

ثالثًا: رحمته ولطفه ﷺ في مخاطبة ومحاورة السائل المشدد في طرحه، ونتيجة ذلك.

رابعًا: رحمته ﷺ في خطابه مع أبي سفيان وأهل مكة يوم الفتح.

خامسًا: رحمته ﷺ بعيادته الغلام اليهودي ودعوته إلى الإسلام.

سادسًا: رحمته ﷺ في موقف وفاة عبدالله بن أبيّ.

الخاتمة: النتائج والتوصيات.

قائمة المراجع والفهرس

المبحث الأول
بيان أهمية ومكانة الرحمة في الإسلام

أولًا: الإشارة إلى ما ورد من نصوص الرحمة في الكتاب والسنة:

من خلال ما ورد من نصوص مستفيضة عن الرحمة في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة يتضح بجلاء مكانة وأهمية هذه الصفة العظيمة، ومدى اعتناء الإسلام بها أيما اعتناء، وحثه عليها، فقد سمى الله ﷻ ووصف بها نفسه في غير موضع من كتابه الكريم، فهو الرحمن الرحيم، ودعاه بها أنبياؤه ورسله عليهم السلام، كما وصف ﷻ بها نبيه محمداً ﷺ، وأمر الناس بالعمل بها، بل ورد التوبيخ والتوجيه لمن لم يتصف ويعمل بها، مما يؤكد أهميتها، وضرورة اعتناء العلماء والدعاة بها، ومسيس الحاجة لمزيد من السعي لمحاولة جعلها واقعًا معاشًا في حياة الناس اليوم كما كانت في عهد سلف الأمة، بما يعود عليهم وعلى مجتمعاتهم والبشرية عمومًا بالخير والآثار الإيجابية من ناحية، وبما يساهم في نشر دعوة الإسلام السمحة، وتقبل تعاليمها، ومعالجة وتصحيح ما قد ينشأ من سلوكيات ومفاهيم مخالفة من ناحية أخرى.

ويكفى إبرازًا لهذه المكانة، أن الله تبارك وتعالى قال: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:١٢]، وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، فقد قضى ﷻ أنه رحيم بعباده، يقبل منهم التوبة والإنابة، وإقبال المتولين عنه

إليه، ولا يعجل عليهم بالعقوبة[١] فهو ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة][٢] وهو الحنان ذو الرحمة الرحيم بعباده[٣] وقال ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ [الأنعام:١٣٣]، وقوله ﷻ: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [ص:١٥٦]، فرحمته ﷻ الواسعة تشمل جميع الخلق[٤] وقد جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ أنه قال: قال الله ﷻ: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي»[٥].

كما حرص أنبياء الله ورسله عليهم السلام على طلب رحمته ﷻ، ومن ذلك قوله تبارك وتعالى في دعاء آدم وزوجه عليهما السلام: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾ [الأعراف]، وفي نوح عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود:٤٧]، وعن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١٥١﴾ [الأعراف]، كما قال ﷻ عن نبيه محمد ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وأخبر أنه أرسله ﷺ رحمة للعالمين، فقد جاء ﷺ بالرحمة لكافة الخلق فيما تضمنه القرآن الكريم[٦]

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٧٣/١١، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣٩٥/٦، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية ٢٧١/٢، تحقيق: عبدالسلام محمد، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٢) وللاطلاع على مواضع ذكرهما في القرآن الكريم منفردين أو مقترنين، بالإمكان مراجعة بحث تناول هذه الجزئية بشيء من التفصيل: رحمة الله ﷻ أسبابها وآثارها، د. مسفر الغامدي ١٨٥ ٢٠٧ و٢١٣، مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٤٥ ربيع الأول إلى جمادى الثانية ١٤١٦هـ، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء المملكة العربية السعودية.

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤٥٣/١، ولسان العرب، ابن منظور ١٢٨/١٣، ومختار الصحاح، الرازي ٨٣ و١١٥.

(٤) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي ٧٢/٥، تحقيق: علي عطية، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥هـ، ومحاسن التأويل، القاسمي ٣٢٢/٤، تحقيق: محمد السود، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤١٨هـ.

(٥) صحيح مسلم، كتاب التوبة، سعة رحمة الله ﷻ...، ٢١٠٨/٤ رقم ٢٧٥١، تحقيق: محمد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: د، ت: د، وانظر: صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله: «بل هو قرآن مجيد...» ١٦٠/٩ رقم ٧٥٥٣، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٨٥/٥، تحقيق: سامي سلامة، دار طيبة، ط: الثانية، ١٤٢٠هـ، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي ٢٥١/٤، دار الفكر بيروت، ط: د، ١٤١٥هـ.

حيث قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، وقد بين ذلك ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره، حين قال: «وأولى القولين في ذلك بالصواب، القول الذي رُوي عن ابن عباس، وهو أن الله أرسل نبيه محمدا ﷺ رحمة لجميع العالم، مؤمنهم وكافرهم»(١).

رحمة لهم في الدين والدنيا؛ لأن ما بعث به ﷺ سبب لإسعاد البشرية، وموجب لصلاح دنياهم وأخراهم(٢) «أما في الدين فلأنه ﷺ بعث والناس في جاهلية وضلالة، وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم، لطول مكثهم وانقطاع تواترهم، ووقوع الاختلاف في كتبهم، فبعث الله ﷻ محمدًا ﷺ حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب، فدعاهم إلى الحق، وبين لهم سبيل الثواب، وشرع لهم الأحكام، وميز الحلال من الحرام، ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق، فلا يركن إلى التقليد ولا العناد والاستكبار... وأما في الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب، ونصروا ببركة دينه»(٣).

وقد بين ﷺ أنه نبي الرحمه، الذي بعثه الله بها، ومن ذلك تسميته لنفسه بأسماء منها قوله ﷺ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ... وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ»(٤).

فقد كان ﷺ رحيمًا بأمته كافة، ومن ذلك رحمته بالمخالف منهم، فعلى سبيل المثال أنه «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ قَالَ: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ

(١) جامع البيان، الطبري ٥٥٢/١٨، وانظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي ٧٢٥، تحقيق: صفوان داوودي، دار القلم الدار الشامية دمشق، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥هـ، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي ٣٢٠/٣، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٠هـ.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٦٢/٤، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦٣/٤ و٣٥٠/١١.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩٣/٢٢، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: الثالثة، ١٤٢٠هـ، وانظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي ٦٨٧/٥، دار الفكر بيروت، ط: د، ت: د.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، في أسمائه ﷺ ١٨٢٨/٤ رقم ٢٣٥٥.

لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً»[1] كما كان رحيمًا شفيقًا على المخالفين له في أشد المواقف، التي تعرض فيها للأذى، لدرجة أنه ﷺ يأتيه ملك الجبال، وهو مهموم على وجهه الشريف من شدة ما لاقاه منهم، فيختار الرحمة عوضًا عن الانتقام والعذاب، فقد جاء عن جبريل عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ... إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟[2] فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[3].

قال ابن حجر رحمه الله: «وفي هذا الحديث بيان شفقة النبي ﷺ على قومه، ومزيد صبره وحلمه ﷺ وهو موافق لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]»[4].

ولذا جاء التوجيه من المصطفى ﷺ أيضًا بالحث على رحمة الناس والتحذير من خلاف ذلك، فقد ورد أَنَّ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ[5] أَبْصَرَ النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُ الْحَسَنَ فَقَالَ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ»[6] وقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ لَا يَرْحَمِ النَّاسَ، لَا يَرْحَمْهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»[7] فالحديث يدل بمنطوقه على أن

(١) المرجع السابق، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، ٢٠٠٦/٤ رقم ٢٥٩٩.

(٢) جبلي مكة أبي قبيس والجبل الذي يقابله، سميا بذلك لصلابتهما، وغلظ حجارتهم. انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٥٥/١٢ والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣٢/٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم أمين والملائكة...، ١١٥/٤ رقم ٣٢٣١.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر ٣١٦/٦، رقمه: محمد عبدالباقي، صححه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة بيروت، ١٣٧٩هـ.

(٥) الأقرع بن حابس التميمي، من المؤلفة قلوبهم، حسن إسلامه، وكان شريفًا في الجاهلية والإسلام، وفد على النبي ﷺ، وشهد فتح مكة وحنينًا والطائف. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر ٢٥٢/١ رقم ٢٣١، وأسد الغابة، ابن الأثير ٢٦٤/١ رقم ٢٠٨.

(٦) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، رحمته ﷺ الصبيان والعيال، ١٨٠٨/٤ رقم ٢٣١٨

(٧) المرجع السابق، كتاب الفضائل، رحمته ﷺ الصبيان والعيال، ١٨٠٩/٤ رقم ٢٣١٩.

الله لا يرحم من لا يرحم الناس، وبمفهومه على أن من يرحم الناس يرحمه الله[١]. وبيّن «العلماء أن هذا عام يتناول رحمة الأطفال وغيرهم»[٢].

بل تجاوز الحث على الرحمة التي دعا إليها الإسلام، البشر إلى الحيوان، فهذا رجل غفر له لرحمته وسقياه لكلب[٣]، وتلك امرأة دخلت النار لحبسها هرة[٤].

وقد علق ابن بطال رحمه الله بقوله: «في هذه الأحاديث الحض على استعمال الرحمة للخلق كلهم كافرهم ومؤمنهم، ولجميع البهائم والرفق بها، وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوب ويكفر به الخطايا، فينبغي لكل مؤمن عاقل أن يرغب في الأخذ بحظه من الرحمة، ويستعملها في أبناء جنسه وفي كل حيوان»[٥].

وسيتضح المزيد من الأمثلة والتطبيقات العملية للرحمة في خطاب النبي ﷺ مع المخالف من المسلمين وغير المسلمين، وآثار ذلك من خلال المبحث الثاني والثالث، وقبل البدء بذلك أختم المبحث الحالي بشيء من الإيضاح للجزئية التالية.

ثانيًا: الإشارة إلى أن الأمر بالرحمة والإحسان لا يتعارض مع النهي عن الموالاة:

إن التعامل بالرحمة والإحسان مع الناس عامة بما هو من مكارم الأخلاق وفضائلها أمر مطلوب ومرغب فيه، ولا سيما إن كان لغير المسلمين لدعوتهم

(١) انظر: بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، السعدي ١٨٨، تحقيق: عبدالكريم ال الدريني، مكتبة الرشد، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ
(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٥/٧٧.
(٣) انظر: صحيح مسلم، كتاب السلام، فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها ٤/١٧٦١ رقم ٢٢٤٤.
(٤) انظر: المرجع السابق، كتاب البر والصلة والآداب، تحريم تعذيب الهرة ونحوها من الحيوان الذي لا يؤذي ٤/٢٠٢٣ رقم ٢٦١٩
(٥) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٩/٢١٩، تحقيق: أبو تميم بن إبراهيم، مكتبة الرشد الرياض، ط: الثانية،

إلى الإسلام وبيان محاسنه، ولا تعارض بينه، وبين ما ورد من النهي عن الموالاة، فقد قال الله ﷻ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة]، وقد بين ابن جرير رحمه الله أن: «أولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم، وتقسطوا إليهم»[1] وعن أسماء[2] رضي الله عنها قالت: «قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: «نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ»[3] فأمرها ﷺ بالقبول والإكرام[4].

وقد ذكر القرافي رحمه الله (الفرق بين قاعدة بر أهل الذمة، وقاعدة التودد لهم» حيث أشار إلى ما يؤكد جانب الرحمة والإحسان بقوله: «الإحسان لأهل الذمة مطلوب، وأن التودد والموالاة منهي عنهما، والبابان ملتبسان، فيحتاجان إلى الفرق...»، ثم ذكر أمثلة من مكارم الأخلاق في التعامل معهم، كقوله: «وأما ما أمر به من برهم ومن غير مودة باطنية، فالرفق بضعيفهم، وسد خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وإكساء عاريهم، ولين القول لهم على سبيل اللطف لهم، والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة... والدعاء لهم بالهداية... فإن ذلك من مكارم الأخلاق» ثم قال في نهاية ذلك: «وبالجملة

(١) جامع البيان، الطبري ٢٣/٢٢٣.
(٢) أسماء بنت أبي بكر عبدالله بن أبي قحافة، زوج الزبير بن العوام، وأخت أم المؤمنين عائشة، من أوائل من أسلم من الصحابيات، كانت تسمى بذات النطاقين، عمرت حتى بلغت المائة، وكانت من آخر المهاجرات وفاة، توفيت سنة ٧٣هـ، انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير ٧/٧ رقم ٦٧٠٥، تحقيق: علي معوض وزميله، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥هـ، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ٢/٢٨٧ رقم ٥٢، تحقيق: بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط: الثالثة، ١٤٠٥هـ.
(٣) صحيح البخاري، كتاب الهبة، باب الهدية للمشركين، ٣/١٦٤ رقم ٢٦٢٠.
(٤) انظر: الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، الكرماني ١١/١٤٥، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: الثانية، ١٤٠١هـ.

فبرهم والإحسان إليهم مأمور به، وودهم وتوليهم منهي عنه، فهما قاعدتان: إحداهما محرمة والأخرى مأمور بها»[1].

وكما تمت الإشارة إلى الفرق بين الرحمة وحسن التعامل والتودد غير المشروع، تجدر الإشارة هنا إلى أن استخدام القوة المشروعة في مواطنها المحددة شرعًا، هي كذلك نوع من الرحمة بالخلق، حيث بالإمكان أن يرى من واقع السيرة النبوية العطرة، كيف أن القوة المشروعة تحمي الرحمة، وبأن الرحمة تهذب القوة، وتحاصر فيها مظاهر الشر والقسوة، غير المبررة شرعًا، فهو منهج متوازن، كيف لا، وهو ﷺ الرحيم بأمته، والأسوة الحسنة لهم، وتم الاكتفاء بالإشارة إلى ذلك، والإحالة أدناه لمزيد من الاطلاع لكونه

لن يتم التطرق لهذه الجزئية في هذا البحث لطبيعة مجاله ومحدوديته[2].

(١) الفروق، القرافي ١٤/٣ ١٦، عالم الكتب بيروت، ط.د، ت.د.، وانظر: فتح الباري، ابن حجر ٢٣٤/٥ و٥٢٨/١٠، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي ٤٨/٣، تحقيق: محمد مستو وآخرون، دار ابن كثير دمشق، ط: الأولى، ١٤١٧هـ.

(٢) ولمزيد من الاطلاع على هذا الجانب، انظر: على سبيل المثال: شرح السنة، البغوي ٢١٣/١٣ – ٢١٤، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد الشاويش، المكتب الإسلامي دمشق، بيروت، ط: الثانية، ١٤٠٣هـ، ومفاتيح الغيب، الرازي ١٩٣/٢٢، والتسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٣١/٢، تحقيق: د. عبدالله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم بيروت، ط: الأولى، ١٤١٦هـ، والرحمة في حياة الرسول ﷺ، أ.د. راغب السرجاني ١٢٧ ١٣٥ و٣٦٧، ومظاهر الرحمة للبشر في شخصية النبي محمد ﷺ، إعداد: أ.د. زيد العيص ١٠٩ وما بعدها و١١٩.

المبحث الثاني
الرحمة في خطاب النبي ﷺ مع المسلمين

من المعلوم أن الإنسان اجتماعي بطبعه، يخالط ويألف ويعيش مع الناس، ويسعى لتكوين علاقات متنوعة، وهو معرض على مر التاريخ، وبحكم بشريته للوقوع في المخالفة، والخطأ المقصود وغير المقصود من جراء وخلال تلك العلاقات الإنسانية.

وسيتم من خلال المبحثين (الثاني والثالث) التطرق بمشيئة الله ﷻ لوقائع وأمثلة متنوعة، يتبين من خلالها كيف كانت الرحمة في خطاب النبي ﷺ مع المخالف من المسلمين وغير المسلمين، والإشارة إلى آثار ذلك؛ محاولة لإعطاء صورة ونموذج واقعي لتلك الحقبة المباركة، وإمكانية التأسي بها من قبل العلماء والدعاة وغيرهم.

وسيكون الحديث في هذا المبحث (الثاني) عن الرحمة في خطاب النبي ﷺ مع المخالف من المسلمين، على ضوء أمثلة ومواقف حياتية متنوعة تبرز من خلالها تلك الصفة العظيمة، وذلك الخلق الكريم، فبشيء من التتبع والاستقراء لسيرته العطرة ﷺ نجده يعطي أروع الأمثلة وأرقاها لأتباعه للتأسي والاقتداء به في هذا السلوك، دون تكلف ولا عناء، وإنما هي الفطرة السليمة وتعاليم الإسلام السمحة.

ولذا نجده ﷺ في عدد من المواقف والأحداث يهم أصحابه الكرام رضي الله عنهم

وأرضاهم بالإنكار حرصًا على ما يرونه مخالفًا لما عهدوه وتعلموه، فيأتي خطاب وتوجيه النبي القدوة والرحمة المهداة ﷺ محملًا بالرحمة والشفقة في معالجة تلك المواقف والأحداث، ومما يوضح ذلك ويبينه ما يلي:

أولًا: رحمته ﷺ ورأفته في خطابه للمتكلم في الصلاة:

فهذا أحد الصحابة، معاوية بن الحكم رضي الله عنه يروي ما حصل له عندما تكلم في الصلاة، وشمت العاطس، وهو خلاف ما يجب أن يكون فيها، وكيف تعامل معه من في المسجد، أثناء الصلاة، وكيف خاطبه النبي ﷺ بعد انقضائها، حتى أثر ذلك في نفسه، وقال ما قال عن رسول الله ﷺ، جاء في الحديث «عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ[1]، قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ؟ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ، فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي، لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ، مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»[2].

فقد وصف الموقف الذي دار بينه وبين من في المسجد رضي الله عنهم أجمعين حينما أتى في الصلاة بما يخالف صفتها، بأنهم نظروا إليه نظر المنكر وحذروه[3]، بينما كان منه ﷺ بعد انقضاء الصلاة ما يدل على الرحمة والرأفة، فلم يغلظ عليه في الخطاب، ولا استقبله بالعبوس[4] وإنما بين ﷺ

(١) معاوية بن الحكم له صحبه، يعد من أهل الحجاز، سكن المدينة، له حديث تشميت العاطس في الصلاة وغيره. انظر: أسد الغابة، ابن الأثير ٥/١٩٩ رقم ٤٩٨١، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر ٦/١١٨ رقم ٨٠٨٢، تحقيق: عادل عبدالموجود وزميله، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥هـ.

(٢) صحيح مسلم، كتاب المساجد ...، تحريم الكلام في الصلاة... ١/٣٨١ رقم: ٥٣٧.

(٣) انظر: نيل الأوطار، الشوكاني ٢/٢٧٠، تحقيق: عصام الصبابطي، دار الحديث مصر، ط: الأولى، ١٤١٣هـ.

(٤) معالم السنن شرح سنن أبي داود، الخطابي ١/٢٢١ ٢٢٢، المطبعة العلمية حلب، ط: الأولى، ١٣٥١هـ

له ما يصلح وما لا يصلح، في الصلاة. ولذا قال ﷺ متأثرًا بهذا الموقف: «فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ، مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي... «فهنا اتضح أثر هذه الرحمة على الصحابي الجليل، فقال ما قال في وصف النبي ﷺ.

وفي هذا الصدد يقول النووي رَحِمَهُ اللَّهُ معلقًا على الحديث بما يبيّن رحمته ﷺ وشفقته وأهمية التأسي به: «فيه بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخلق، الذي شهد الله ﷻ له به، ورفقه بالجاهل، ورأفته بأمته وشفقته، عليهم، وفيه التخلق بخلقه ﷺ في الرفق بالجاهل وحسن تعليمه، واللطف به وتقريب الصواب إلى فهمه»[1].

ثانيًا: رحمته ﷺ في خطابه للأعرابي، وما حصل منه في المسجد:

وشبيهًا في كيفية التعامل مع الموقف السابق، ما حصل مع الأعرابي الذي أتى إلى مسجد رسول الله ﷺ فبال في ناحية من نواحيه، فتناوله الناس رضي الله عنهم بألسنتهم، وزجروه، وأنكرو، عليه فعلته المخالفة[2] ، فنهاهم ﷺ عن ذلك الصنيع، وتعامل معه بكل رأفة ورحمة، وتمت معالجة ما أحدثه الأعرابي، واستدراكه بغسله بالماء دون انتشاره[3] وتعليمه بأسلوب رحيم شفيق ما يصلح وما لا يصلح الإتيان به في بيوت الله ﷻ، فقد جاء أنه: قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي المَسْجِدِ، فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ»[4].

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ٥/٢٠

(٢) انظر: عمدة القاري، العيني ٣/١٢٨.

(٣) انظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال ١/٣٢٧، وقد بين العلماء الحكمة من ترك الأعرابي إكمال ما بدأ به، ومنها تحصيل أعظم المصلحتين بترك أيسرهما، ولمزيد من الاطلاع حيال هذه الجزئية بالإمكان مراجعة: شرح صحيح مسلم، النووي ٣/١٩٣، وفتح الباري، ابن حجر ١/٣٢٣، وعمدة القاري، العيني ٣/١٢٧.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد ١/٥٤ رقم ٢٢٠.

وعند مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ «أنه جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: مَهْ مَهْ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تُزْرِمُوهُ دَعُوهُ» فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ»[1].

وقد أثر ذلك الموقف في الأعرابي وفدى رسول الله ﷺ بأبيه وأمه، حيث لم يؤنبه أو يوبخه[2]، بل خاطبه ﷺ برأفة ورحمة وحسن خلق، كيف لا، وهو كما وصفه الله ﷻ أنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وأنه ﷺ على خلق عظيم[3].

ومن كمال رحمته ﷺ في هذا الموقف أنه وجه أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم الذين هم في مقام التبليغ عنه بقوله: «فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ» حيث تم تأكيد هذا الأمر في خطابه ﷺ لهم بالتيسير، وبعده بعدم التعسير، فهو تأكيد بعد تأكيد للدلالة على اليسر قطعًا[4].

وكان من رحمته ورأفته ﷺ أنه في شأنه كله، يوجه ﷺ أصحابه وأتباعه من بعده بالتيسير وترك كل عسير[5].

ثالثًا: رحمته ﷺ في خطابه وتوجيهه بمراعاة أحوال الناس بشأن إطالة الصلاة:

ومن الأمثلة والنماذج الرائعة أيضًا الدالة على رحمته وشفقته بأمته، ومراعاة أحوالهم ما حدث عندما أتاه آت يشكو ما حصل له من إطالة الإمام

(١) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، وجوب غسل البول وغيره من النجاسات. ١/٢٣٦ رقم ٢٨٥.
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١/٣٢٥.
(٣) انظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال ١/٣٢٧، وفتح الباري، ابن حجر ١/٣٢٥، وإكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٢/١٠٩، تحقيق: د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء مصر، ط: الأولى، ١٤١٩هـ.
(٤) انظر: عمدة القاري، العيني ٣/١٢٨.
(٥) انظر: حاشية السندي على سنن النسائي، السيوطي١/٤٩، مكتب المطبوعات الإسلامية حلب، ط: الثانية، ١٤٠٦هـ.

للصلاة، وتبيينه للرسول ﷺ أنه صاحب عمل؛ يعتريه ما يعتريه من التعب الذي يضعف قدرته على تحمل تطويل الصلاة، فما كان من نبي الرحمة ﷺ إلا أن وجّه معاذًا[١] رضي الله عنه بما يجب العمل به، ومراعاة أحوال الناس.

فقد جاء في الحديث أنه: «أَقْبَلَ رَجُلٌ بِنَاضِحَيْنِ[٢] وَقَدْ جَنَحَ اللَّيْلُ فَوَافَقَ مُعَاذًا يُصَلِّي، فَتَرَكَ نَاضِحَهُ وَأَقْبَلَ إِلَى مُعَاذٍ، فَقَرَأَ بِسُورَةِ البَقَرَةِ -أَوِ النِّسَاءِ- فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ وَبَلَغَهُ أَنَّ مُعَاذًا نَالَ مِنْهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَشَكَا إِلَيْهِ مُعَاذًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ» -أَوْ «أَفَاتِنٌ»- ثَلَاثَ مِرَارٍ: «فَلَوْلَا صَلَّيْتَ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى، فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الكَبِيرُ وَالضَّعِيفُ وَذُو الحَاجَةِ»[٣] ولذا بوّب البخاري رحمه الله لهذا الموضوع باب: «من شكا إمامه إذا طول».

فالرجل بيّن حاله بأنه صاحب إبل يسقي عليها النخل والزرع، ويعمل بها، فيتعب وينصب، ومن ثم تضعف قواه، فلا يستطيع تحمل تطويل الصلاة[٤] وهنا ورد توجيه نبي الرحمة ﷺ للصحابي الجليل معاذ رضي الله عنه بمراعاة أحوال الناس، وعدم التنفير والصد عن الدين[٥]، وقد بيّن النبي ﷺ ذلك بفعله أيضًا، حين قال: «إِنِّي لَأَقُومُ فِي الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى

(١) معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي، شهد العقبة وبدرًا وأحدًا، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان عمره لما أسلم ثماني عشرة سنة، أرسله رسول الله ﷺ إلى اليمن، وهو من علماء وفقهاء الصحابة، توفي بالطاعون في الشام سنة ثماني عشرة، وكان عمره قرابة ثمان وثلاثين سنة. انظر: أسد الغابة، ابن الأثير ١٨٧/٥ رقم ٤٩٦٠، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر ١٠٧/٦ رقم ٨٠٥٥، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ٤٤٣/١ رقم ٨٦.

(٢) تثنية ناضح، والنواضح: الإبل التي يسقى عليها، انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٢/ ٣٨١، وفتح الباري، ابن حجر ٢٠٠/٢، وإرشاد الساري، القسطلاني ٥٩/٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب من شكا إمامه إذا طول ١٤٢/١ رقم: ٧٠٥.

(٤) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٨٢/٤، وإكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٣٨١/٢.

(٥) انظر: المرجع السابق، وإرشاد الساري، القسطلاني ٦٧/٩، وفتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن رجب ٢٣١/٦، تحقيق: محمد عبدالمقصود وآخرون، مكتبة الغرباء الأثرية المدينة النبوية، ط: الأولى، ١٤١٧هـ.

أُمِّه»[1] قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفيه شفقة النبي ﷺ على أصحابه ومراعاة أحوال الكبير منهم والصغير»[2].

رابعًا: رحمته ﷺ في خطابه للنفر الذين أرادوا التشديد على أنفسهم:

إن من رأفته ورحمته بأمته ﷺ أن يعلمهم الوسطية، وسلوك الطريق المؤدي إلى تعاليم الإسلام السمحة، دون إفراط ولا تفريط، ويبعدهم عن كل ما من شأنه الإفضاء إلى طريق التشدد، وتصحيح المفاهيم والسلوكيات المؤدية إلى المخالفة، ومن ذلك الرهط الذين رغبوا في التشديد على أنفسهم، ومخالفة هدي رسول الله ﷺ في العبادة وغيرها، فما كان منه ﷺ إلا أن وجههم ومن بعدهم بما يجب أن يكونوا عليه.

ورد في الحديث أنه: «جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[3]، وجاء في صحيح مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ: أنه قال بعضهم: «لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا آكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، فَقَالَ ﷺ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا؟ لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[4].

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي ١٤٣/١ رقم ٧٠٧.
(٢) فتح الباري، ابن حجر ٢٠٢/٢.
(٣) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح ٢/٧ رقم: ٥٠٦٣
(٤) صحيح مسلم، كتاب النكاح، استحباب النكاح لمن تاقت نفسه ١٠٢٠/٢ رقم: ١٤٠١

فهم قدموا بيت النبي ﷺ مستفسرين عن عبادته، فبدلًا من حسن التأسي والاقتداء، وسلوك مسلكه الرحيم ﷺ، تداولوا ما تخيلوه الأفضل بحسب ما قدّروه وتأوّلوه في أنفسهم، فقالوا ما قالوا[1].

ولكون مثل هذا، المسلك الذي ظاهره التشدد، ومؤداه إلى مخالفة ما جاء به ﷺ من الحنيفية السمحة، حيث إن «الأخذ بالتشديد في العبادة؛ يفضي إلى الملل القاطع لأصلها، وملازمة الاقتصار على الفرائض مثلًا، وترك التنفل يفضي إلى إيثار البطالة، وعدم النشاط إلى العبادة، وخير الأمور الوسط»[2].

ولذا نجده ﷺ وهو الرحيم حين لقي هؤلاء الرهط فيما بينه وبينهم حذرهم من ذلك؛ رفقًا بهم وسترًا لهم[3]، وعندما أراد أن ينبه الجميع للتحذير من الوقوع في مثله، قال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا؟»، وفي هذا الصدد قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هو موافق للمعروفً من خطبه ﷺ في مثل هذا، أنه إذا كره شيئًا، فخطب له ذكر كراهيته، ولا يعين فاعله، وهذا من عظيم خلقه ﷺ فإن المقصود من ذلك، الشخص، وجميع الحاضرين، وغيرهم ممن يبلغه ذلك، ولا يحصل توبيخ صاحبه في الملأ»[4].

وقد بين العلماء أن في هذا الحديث التوجيه لهم، ولمن بعدهم، بالاقتداء به ﷺ، وبمن سار على نهجه، وذلك بالأخذ بالتوسط، فقد قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفيه الاقتداء بالأئمة فى العبادة، والبحث عن أحوالهم، وسيرهم فى الليل والنهار، وأنه لا يجب أن يتعدى طرق الأئمة؛ الذين وضعهم الله ليقتدى بهم فى الدين والعبادة، وأنه من أراد الزيادة على سيرهم فهو

(١) انظر: ارشاد الساري، القسطلاني ٤/٨، وفتح الباري، ابن حجر ١٠٥/٩، وفيض الباري على صحيح البخاري، محمد أنور شاه ٤٩٧/٥، تحقيق: محمد الميرتهي، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٦هـ.
(٢) فتح الباري، ابن حجر ١٠٦/٩.
(٣) انظر: عمدة القاري، العيني ٦٥/٢٠، وفتح الباري، ابن حجر ١٠٥/٩.
(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ١٧٦/٩.

مفسد، فإن الأخذ بالتوسط والقصد فى العبادة أولى؛ حتى لا يعجز عن شيء منها»[1].

خامسًا: رحمته ﷺ في خطابه مع المخالف في نهار رمضان:

ومن الأمثلة الدالة على رحمته وشفقته ﷺ مع من وقع في مخالفة، وارتكب ذنبًا، ذلك الموقف الرحيم، وتلك المعالجة اللطيفة مع ذلك الرجل الذي جاءه خائفًا على نفسه، مستفتيًا ومقرًا بمخالفته، فما كان منه ﷺ إلا أن تعامل معه وخاطبه برحمة ورأفة.

ورد في الحديث أنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ: «فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكْتُ. قَالَ: «مَا لَكَ؟» قَالَ: وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي وَأَنَا صَائِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا؟» قَالَ: لاَ، قَالَ: «فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ»، قَالَ: لاَ، فَقَالَ: «فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا». قَالَ: لاَ، قَالَ: فَمَكَثَ النَّبِيُّ ﷺ فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَرَقٍ فِيهَا تَمْرٌ -وَالعَرَقُ المِكْتَلُ[2]- قَالَ: «أَيْنَ السَّائِلُ؟» فَقَالَ: أَنَا، قَالَ: «خُذْهَا، فَتَصَدَّقْ بِهِ» فَقَالَ الرَّجُلُ: أَعَلَى أَفْقَرَ مِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَوَاللَّهِ مَا بَيْنَ لاَبَتَيْهَا - يُرِيدُ الحَرَّتَيْنِ[3]- أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَطْعِمْهُ أَهْلَكَ»[4] وعند مسلم رحمه الله أن الرجل قال معبرًا عن حاله وخوفه: «فَقَالَ: احْتَرَقْتُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لِمَ» قَالَ: وَطِئْتُ امْرَأَتِي فِي رَمَضَانَ نَهَارًا، قَالَ: «تَصَدَّقْ، تَصَدَّقْ» قَالَ: مَا عِنْدِي شَيْءٌ...»[5].

(١) صحيح البخاري، ابن بطال ٧/ ١٦٠، وإرشاد الساري، القسطلاني ٨/ ٤، وعمدة القاري، العيني ٢٠/ ٦٦.
(٢) العرق: المكتل وهو الزنبيل، انظر: شرح السنة، البغوي ٦/ ٢٨٣، وفتح الباري، ابن حجر ٤/ ١٦٩.
(٣) اللابتان تثنية لابة، عبارة عن حرتين تكتنفان المدينة، والحرة الأرض ذات حجارة سود. عمدة القاري، العيني ١١/ ٣٣، وإرشاد الساري، القسطلاني ٣/ ٣٧٨.
(٤) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان... ٣/ ٣٢ رقم ١٩٣٦، واللفظ له، وانظر: صحيح مسلم، كتاب الصيام، تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان ٢/ ٧٨١ رقم ١١١١.
(٥) صحيح مسلم، كتاب الصيام، تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان ٢/ ٧٨٣ رقم ١١١٢

فكما هو ظاهر من هذا الحديث الشريف، أن الرجل جاء إلى نبي الرحمة ﷺ خائفًا مترقبًا معبرًا بكلمات تدل على حاله، كقوله: «هلكت» و«احترقت».

وعلى الرغم من قيامه بما يخالف هذا الشهر الفضيل، والذي هو ركن من أركان الإسلام، نجد الرحمة المهداة ﷺ يرشده ويوجهه برفق ولطف، ثم يضحك ﷺ حتى بدت أنيابه، وقد قيل: «إن سبب ضحكه ﷺ كان من تباين حال الرجل، حيث جاء خائفًا على نفسه راغبًا في فداها مهما أمكنه، فلما وجد الرخصة طمع أن يأكل ما أعطيه في الكفارة، وقيل: ضحك ﷺ من حال الرجل في مقاطع كلامه، وحسن تأتيه وتلطفه في الخطاب وحسن توسله في توصله إلى مقصوده»[1] والمعنى متقارب.

وهذا يشير إلى رحمته ﷺ ولطفه في التوجيه والتعليم، فقد قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في أثناء ذكره لفوائد هذه الحادثة: «وفيه الرفق بالمتعلم، والتلطف في التعليم، والتألف على الدين»[2] فرسول الله ﷺ لم يعاقب الرجل عما اقترفه في الشهر الكريم؛ لأن في مجيئه واستفتائه ظهور توبته وندمه عما صدر منه، ولو عوقب السائل لربما كان سببًا في ترك الناس الاستفتاء عند وقوعهم في نازلة، مثل ذلك مخافة العقوبة[3].

وقد بوّب البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه: «باب من أصاب ذنبًا دون الحد، فأخبر الإمام، فلا عقوبة عليه بعد التوبة، إذا جاء مستفتيًا»[4].

سادسًا: رحمته ﷺ في خطابه لمن طلب التطهير من الذنب:

ومما يدل على رحمته وشفقته ﷺ وهو الرحيم بأمته على من اقترف ذنبًا يوجب إقامة الحد عليه، تعامله مع الرجل الذي جاء طالبًا تطهيره مما

(١) فتح الباري، ابن حجر ٤/١٧١، وعمدة القاري، العيني ١١/٣٣، وإرشاد الساري، القسطلاني ٣/٣٧٨.
(٢) المرجع السابق ٤/١٧٢، وانظر: عمدة القاري، العيني ١١/٣٤.
(٣) وقد بين العلماء أن ذلك بخلاف ما فيه حد محدود، ولمزيد من الاطلاع بالإمكان مراجعة عمدة القاري، العيني ١١/٣٣، وإرشاد الساري، القسطلاني ٣/٣٧٩، وفتح الباري، ابن حجر ٤/١٦٤ ١٦٥.
(٤) انظر: صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب من أصاب ذنبًا دون الحد... ٨/١٦٦.

وقع فيه من الزنى، وكذلك الحال في حادثة المرأة[1]. ذلك الحوار، وتلك المخاطبة التي تظهر فيها رحمته ورأفته ﷺ بهما، قبل وبعد إقامة الحد الشرعي عليهما.

فقد ورد أنه جَاءَ مَاعِزُ بْنُ مَالِك إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، طَهِّرْنِي، فَقَالَ: «وَيْحَكَ، ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ وَتُبْ إِلَيْهِ»، قَالَ: فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، طَهِّرْنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَيْحَكَ، ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ وَتُبْ إِلَيْهِ»، قَالَ: فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، طَهِّرْنِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا كَانَتِ الرَّابِعَةُ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ: «فِيمَ أُطَهِّرُكَ؟» فَقَالَ: مِنَ الزِّنَى، فَسَأَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَبِهِ جُنُونٌ؟» فَأُخْبِرَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَجْنُونٍ، فَقَالَ: «أَشَرِبَ خَمْرًا؟» فَقَامَ رَجُلٌ فَاسْتَنْكَهَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ رِيحَ خَمْرٍ، قَالَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَزَنَيْتَ؟» فَقَالَ: نَعَمْ، فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ»[2].

وجاء عند مسلم رَحِمَهُ اللهُ فيما يتعلق بحادثة المرأة أنه ﷺ قال لوليها: «أَحْسِنْ إِلَيْهَا، فَإِذَا وَضَعَتْ فَأْتِنِي بِهَا»[3] فقد أمر ﷺ بالإحسان إليها رحمة لها[4].

فيلحظ أن النبي ﷺ ردد الرجل عدة مرات، ولم يقم عليه الحد، تثبتًا في أمره، ورعاية في ستره، وصيانة لدم المسلم، ورجاء رجوعه عن قوله[5].

وكذلك الحال بالنسبة للمرأة، حتى إنها قالت: يَا رَسُولَ اللهِ، طَهِّرْنِي، فَقَالَ: «وَيْحَكِ ارْجِعِي فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ» فَقَالَتْ: أَرَاكَ تُرِيدُ أَنْ

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الحدود، من اعترف على نفسه بالزنى ٣/١٣٢٢ رقم ١٦٩٥.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى ٣/١٣٢٤ رقم: ١٦٩٦.
(٤) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١١/٢٠٥.
(٥) انظر: إكمال المعلم، عياض ٥/٥١٧، وشرح صحيح مسلم، النووي ١١/١٩٣، وشرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد عبدالباقي ٤/٢٢٤، تحقيق: طه سعد، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ط: الأولى، ١٤٢٤هـ.

تُرَدِّدَنِي كَمَا رَدَّدْتَ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ»[1]وقد قيل إن ويح كلمة رحمة[2] وهو ما يدل عليه سياق الخطاب أيضًا.

ومع أن نبي الرحمة ﷺ أقام عليهما الحد الشرعي، وحذر أشد التحذير من مثل إتيان هذا الصنيع بقوله: «أَوَ كُلَّمَا انْطَلَقْنَا غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللهِ تَخَلَّفَ رَجُلٌ فِي عِيَالِنَا، لَهُ نَبِيبٌ كَنَبِيبِ[3] التَّيْسِ، عَلَيَّ أَنْ لَا أُوتَى بِرَجُلٍ فَعَلَ ذَلِكَ إِلَّا نَكَّلْتُ بِهِ»[4] إلا أنه ﷺ عندما اختلف الناس تجاه ما حصل إلى فريقين ما بين مادح وذام، أتاهم ﷺ وهم جلوس، فسلم عليهم، ثم جلس فقال: «اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ»، قَالَ: فَقَالُوا: غَفَرَ اللهُ لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ»[5] وقال ﷺ في المرأة: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى؟»[6].

سابعًا: رحمته وحلمه ﷺ بمن آذاه بالفعل والجفاء في المخاطبة:

إن رحمة النبي ﷺ في خطابه مع المخالف شملت أيضًا من آذوه بفعل أو جفاء في أسلوب المخاطبة، بل نجده ﷺ يمنع أصحابه من التعرض لهم بقول أو فعل.

ومما يشير إلى ذلك: «أَنَّ رَجُلًا تَقَاضَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَغْلَظَ لَهُ فَهَمَّ، بِهِ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ: «دَعُوهُ، فَإِنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالًا، وَاشْتَرُوا لَهُ بَعِيرًا فَأَعْطُوهُ إِيَّاهُ» وَقَالُوا: لاَ نَجِدُ إِلَّا أَفْضَلَ مِنْ سِنِّهِ، قَالَ: «اشْتَرُوهُ، فَأَعْطُوهُ إِيَّاهُ، فَإِنَّ خَيْرَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً»[7].

(١) صحيح مسلم، كتاب الحدود، من اعترف على نفسه بالزنى ٣/١٣٢٢ رقم ١٦٩٥.
(٢) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١١/١٩٩.
(٣) نبيب التيس: صوته عند السفاد. المرجع السابق ١١/١٩٥.
(٤) صحيح مسلم، كتاب الحدود، من اعترف على نفسه بالزنى ٣/١٣٢٠ رقم: ١٦٩٤.
(٥) صحيح مسلم، كتاب الحدود، من اعترف على نفسه بالزنى ٣/١٣٢٢ رقم ١٦٩٥.
(٦) المرجع السابق، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى ٣/١٣٢٤ رقم: ١٦٩٦.
(٧) صحيح البخاري، كتاب في الاستقراض وأداء الديون، باب استقراض الإبل ٣/١١٦ رقم: ٢٣٩٠، =

فهذا الأعرابي جرى على عادته من جفاء المخاطبة والإغلاظ في المطالبة[١].

ولتجاوزه الأدب مع رسول الله ﷺ هَمَّ بأذيته أصحابه ﷺ ، فمنعهم والتمس له العذر، وأحسن له العطاء[٢].

وقد وقع أغرب ممّا ما تمت الإشارة إليه، حين قال أنس بن مالك[٣] ﷺ: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ ﷺ فَضَحِكَ، ثُمَّ «أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ»[٤] فرسول الله ﷺ لم يتأثر بسوء أدبه، وجفاء خطابه، ولم يتغير، بل ضحك تلطفًا، ثم أمر له بعطاء ولم يؤاخذه[٥].

وفيه دلالة واضحة على كمال رحمته، وما جبل عليه ﷺ من الرحمة، وشريف الأخلاق، وليتأسى به من بعده في التحلي بمثل هذه الصفات[٦].

= واللفظ له، وانظر: صحيح مسلم، كتاب المساقاة، من استسلف شيئًا فقضى خيرًا منه ٣/١٢٢٥ رقم: ١٦٠١.

(١) انظر: عمدة القاري، العيني ١٢/٢٣٠، وإرشاد الساري، القسطلاني ٤/١٥٩، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري ٤/٤٥٥، دار الكتب العلمية بيروت، ط: د، ت: د.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٥/٥٦، وشرح صحيح مسلم، النووي ٧/١٤٧، وعمدة القاري، العيني ١٢/١٣٦، والأدب النبوي، محمد الخولي ٢٦٩، دار المعرفة بيروت، ط: الرابعة، ١٤٢٣هـ.

(٣) أنس بن مالك الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله ﷺ، كان يتسمى به ويفتخر بذلك، روى عن النبي ﷺ علمًا جمعًا، وعن الصحابة، لازم رسول الله ﷺ قرابة عشر سنين، وكانت إقامته بعد النبي بالمدنية، شهد الفتوح، ثم سكن البصرة ومات بها، قيل سنة ثلاث وتسعين، وكان من آخر الصحابة موتًا. انظر: أسد الغابة، ابن الأثير ١/٢٩٤ رقم ٢٨٥، والإصابة، ابن حجر ١/٢٧٥ رقم ٢٧٧، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ٣/٣٩٥ رقم ٦٢.

(٤) صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي يعطي المؤلفة قلوبهم ٤/٩٤ رقم: ٣١٤٩، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، إعطاء من سأل بفحش وغلظة ٢/٧٣٠ رقم: ١٠٥٧.

(٥) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان الهروي ٥/١٩٥٥و ٩/٣٧١١، دار الفكر بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ، وشرح صحيح البخاري، ابن بطال ٩/١٠٠، وفيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين محمد المناوي ٣/٥٣٢، المكتبة التجارية الكبرى مصر، ط: الأولى، ١٣٥٦هـ.

(٦) انظر: عمدة القاري، العيني ٢١/٣١٢، وفتح الباري، ابن حجر ١٠/٥٠٦، وشرح صحيح البخاري، ابن بطال ٥/٣٢١ و٩/١٠٠، وإرشاد الساري، القسطلاني ٥/٢٢٦.

ولعله يتضح بجلاء من خلال الأحداث المشار إليها في هذا المبحث، كمال رحمته وشفقته ﷺ، وكيفية تعامله مع تلك المواقف ومخاطبة أصحابها، مع ملاحظة تنوعها، وأنها وقعت في أهم الشعائر والأمور الخاصة بالمسلمين، كالصلاة، والمسجد، ومفهوم العبادة، وارتكاب ما يخالف صيام شهر رمضان، وما يتعلق بالأعراض، والإغلاظ في مخاطبة النبي ﷺ وأذيته، ومع ذلك نجده ﷺ يخاطب أصحاب تلك المواقف بمنتهى الرحمة واللطف، ويعالجها برحمة شاملة وفق منهج نبوي متوازن.

وذلك يؤكد مدى الحاجة للتأسي والاقتداء به ﷺ في تعامله مع المخالف، وما يحدثه ذلك من آثار ايجابية، وبخاصة العلماء والدعاة، المبلغين عن الله ﷻ وعن رسوله ﷺ الساعين لنشر دينه الصحيح؛ استجابة لأمره ﷻ وأمر رسوله ﷺ، ورحمة بالخلق؛ كون تلك الرحمة «من أكبر الأسباب التي تنال بها رحمة الله، التي من آثارها خيرات الدنيا، وخيرات الآخرة، وفقدها من أكبر القواطع والموانع لرحمة الله...، فمتى أراد أن يستبقيها ويستزيد منها، فليعمل جميع الأسباب التي تنال بها رحمته...، والإحسان إلى الخلق أثر من آثار رحمة العبد بهم»[1] وهي» رحمة يكتسبها العبد بسلوكه كل طريق ووسيلة، تجعل قلبه على هذا الوصف... فلا يزال العبد يتعرف الأسباب التي يدرك بها هذا الوصف الجليل، ويجتهد في التحقق به، حتى يمتلئ قلبه من الرحمة، والحنان على الخلق...، وهذه الرحمة التي في القلوب، تظهر آثارها على الجوارح واللسان، في السعي في إيصال البر والخير والمنافع إلى الناس، وإزالة الأضرار والمكاره عنهم»[2].

وهذا ظاهر في سيرته العطرة ﷺ وما تمت الإشارة إليه من أحداث متنوعة في ثنايا هذا المبحث، والتي هي عبارة عن أمثلة ونماذج، ومع ما

(١) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار، السعدي ١٨٨.
(٢) المرجع السابق ١٨٩.

ذكر فإن رحمته ﷺ لم تقتصر على المخالف من المسلمين، بل هي كذلك مع غير المسلمين، ولمزيد من الإيضاح لهذه الصورة المشرقة، وللحاجة إلى إبراز هذا التكامل والتوازن، فإنه سيُشار ويُتطرق إليها باختصار من خلال المبحث التالي.

المبحث الثالث
الرحمة في خطاب النبي ﷺ مع غير المسلمين

حيث تُطرق في المبحث السابق إلى بيان عظيم رحمته ورأفته ﷺ في خطابه مع المخالف من المسلمين، الذين هم أتباعه وعلى دينه، التي لم تقتصر عليهم، بل تجاوزت إلى أولئك الذين خالفوه في الدين والمعتقد، ومع من ناصبوه وأتباعه العداء، ومارسوا معهم لسنوات أشد أنواع القسوة والعنف والإيذاء، فما كان من الرحمة المهداة للعالمين ﷺ إلا منتهى الرحمة والشفقة، ومما يشير إلى ذلك ما يلي:

أولًا: رحمته ﷺ في خطابه وشفقته بالمخالفين وحرصه على هدايتهم:

فقد قال ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَتِ الدَّوَابُّ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهِ، فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهِ»[1] فهو حريص على اهتداء ودعوة أمته إلى الإسلام، وتجنيبهم ما هو سبب أذيتهم وهلاكهم، وتنبيهم بمثل هذا المثال على استشعار الحذر، وخوف التورط في محارم الله[2] ومن كمال رحمته وشفقته ﷺ مقابلة أذاهم بالدعوة بالغفران، والاعتذار بأنهم لجهلهم لا يعلمون[3].

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، شفقته ﷺ على أمته ١٧٨٩/٤ رقم ٢٢٨٤، واللفظ له، وانظر: صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي ١٠٢/٨ رقم ٦٤٨٣.
(٢) انظر: إرشاد الساري، القسطلاني ٢٧٧/٩ ٢٧٨، وشرح صحيح البخاري، ابن بطال ١٩٤/١٠.
(٣) انظر: إكمال المعلم، القاضي عياض، ١٦٤/٦ و٧٢/٨، وصحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب حديث الغار، ١٧٥/٤ رقم ٣٤٧٧، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، غزوة أحد ١٤١٧/٣ رقم ١٧٩٢.

وكما ذكر سابقًا أنه ﷺ كان رحيمًا بالمخالفين له في أحلك وأقسى المواقف، التي تعرض فيها للأذى، حتى إنه ﷺ وهو مهموم على وجهه الشريف من شدة ما لاقاه منهم؛ يأتيه ملك الجبال لتعذيبهم، فيختار الرحمة بهم وبأجيالهم عوضًا عن الانتقام والعذاب، ولذا عندما طلب منه ﷺ الدعاء على المشركين وقتئذ، بين أنه لم يبعث لعانًا، وإنما بعث رحمة[١].

وهذا من مزيد رحمته وشفقته على أمته وكثرة حلمه[٢] ومن ذلك أنه طلب منه ﷺ أن يدعو على دوس، فدعا لهم، فقد ورد «أَنَّ دَوْسًا، قَدْ هَلَكَتْ عَصَتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ»[٣].

وقد علق الكرماني رَحِمَهُ اللَّهُ على ذلك بقوله:«فإن قلت هم طلبوا الدعاء عليهم ورسول الله ﷺ دعا لهم، قلت: هذا من كمال خلقه العظيم ورحمته بالعالمين»[٤] وفي ذات السياق، قال العيني رَحِمَهُ اللَّهُ :» لا شك أن رسول الله، ﷺ رحمة للعالمين، ومع هذا كان يحب دخول الناس في الإسلام، فكان لا يعجل بالدعاء عليهم ما دام يطمع في إجابتهم إلى الإسلام، بل كان يدعو لمن يرجو منه الإنابة»[٥] ولا شك أن هذا يدل دلالة واضحة على «كمال خلقه العظيم، ورحمته ورأفته ﷺ بأمته جزاه الله عنا أفضل ما جزى نبيًا عن أمته»[٦].

ثانيًا: رحمته ﷺ في خطابه مع ثُمَامَة بن أُثَال ونتائج ذلك:

كان ثمامة رجلًا من كبار بني حنيفة، وقد اتخذ موقفه المبغض لرسول الله ﷺ ودينه وبلده، فأُسر وأُتي به، ورُبط في سارية من سواري المسجد،

(١) انظر: ص ٨ من هذا البحث.
(٢) انظر: إرشاد الساري، القسطلاني ٢٧٦/٥، وفيض القدير، المناوي ١١٩/٢.
(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم ٤٤/٤ رقم ٢٩٣٧، واللفظ له وانظر: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، من فضائل غفار وأسلم وجهينة ١٩٥٧/٤ رقم ٢٥٢٤.
(٤) الكواكب الدراري، الكرماني ١٨٤/١٢، وانظر: فتح الباري، ابن حجر ١٠٨/٦.
(٥) عمدة القاري، العيني ٢٠٨/١٤، وانظر: شرح صحيح مسلم، النووي ١٥٢/١٦.
(٦) إرشاد الساري، القسطلاني ١١٠/٥

فكان يرى ويشاهد ما يحدث فيه، وكان رسول الله ﷺ لمدة ثلاثة أيام يخاطبه ويلاطفه بقوله: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» فَقَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ، إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ المَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ»[1] وفي مخاطبة الرسول ﷺ لثمامة وتكرار ذلك قال النووي رحمه الله: «إن هذا من تأليف القلوب وملاطفة لمن يرجى إسلامه من الأشراف الذين يتبعهم على إسلامهم خلق كثير»[2] وهو ما حصل، فحين أمر الرسول ﷺ بإطلاقه، ذهب فاغتسل ثم عاد إلى المسجد ليعلن إسلامه، ويبين ما حصل لديه من تغير تجاه رسول الله ﷺ ودينه وبلده حين قال: «يَا مُحَمَّدُ، وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الوُجُوهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ البِلاَدِ إِلَيَّ»[3].

وقد حسن إسلامه رضي الله عنه ولم يرتد مع من ارتد من أهل اليمامة، بل إنه منع الحنطة عن قريش حتى يأذن فيها رسول الله، فكتبوا إليه ﷺ يستعطفونه، فوجه ثمامة أن يعيد ما حبسه عنهم[4] فياله من تعامل رحيم يؤدي إلى مثل هذا التأثير.

ثالثًا: رحمته ولطفه ﷺ في مخاطبة ومحاورة السائل المشدد في طرحه ونتيجة ذلك:

ومما يشير إلى ذلك أنه حين قدم رجل إلى مسجد رسول الله ﷺ وسأل عنه ثم قال: «يَا ابْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ أَجَبْتُكَ». فَقَالَ

(١) صحيح البخاري، كتاب الخصومات، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال ٥/ ١٧٠ رقم ٤٣٧٢، واللفظ له، وانظر: صحيح مسلم، كتاب الجهاد، ربط الأسير وحبسه... ٣/ ١٣٨٦ رقم ١٧٦٤.
(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٢/ ٨٩.
(٣) صحيح البخاري، كتاب الخصومات، باب وفد بني حنيفة... ٥/ ١٧٠ رقم ٤٣٧٢.
(٤) انظر: المرجع السابق، والكواكب الدراري، الكرماني ١٠/ ٢١٨، وإرشاد الساري، القسطلاني ٦/ ٤٣٣.

الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنِّي سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فِي المَسْأَلَةِ، فَلاَ تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ؟ فَقَالَ: «سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ»[1] فعلى الرغم من إخلال السائل برعاية آداب الخطاب[2] إلا أن النبي ﷺ لم يلتفت إلى ذلك، بل تواصل معه حتى فرغ مما لديه من استفسارات عن شرائع الإسلام، ثم كانت النتيجة أن أعلن إسلامه، وبين مكانته في قومه حين قال: «آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ»[3]. وقد قيل في فائدة تعريفه بنفسه في نهاية الحوار كونه من المشاهير، أو لأن إيمانه سبب إيمان قومه[4].

وقريب من هذا ما حصل مع الرجل الذي اخترط سيف رسول الله ﷺ وقال له من يمنعك مني؟، ثم جلس، وعفى عنه ﷺ ولم يعاقبه[5] رجاء إسلامه، وسماع قومه منه بصدق محاسن هذه الأخلاق ما يكون سببًا في إسلامهم وسعادتهم، وقد قيل إنه أسلم، ورجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير[6].

رابعًا: رحمته ﷺ في خطابه مع أبي سفيان وأهل مكة يوم الفتح:

من المواقف الخالدة، والصور النادرة الرائعة التي سطرها التاريخ مع الذين أخرجوا الرحمة المهداة ﷺ من بلده، واستعملوا معه وأتباعه أشد أنواع القسوة في المحاربة والإيذاء؛ أن يعاملوا ويخطابوا عند النصر والاقتدار بمنتهى الرحمة، حتى خشي الأنصار رضي الله عنهم أن ما رأوه مؤشرًا على رأفته ﷺ بقومه، ورغبته البقاء معهم بمكة، فطمأنهم ﷺ وبين مكانتهم، فأقبلوا إليه معتذرين يبكون.

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما جاء في العلم... ٢٣/١ رقم ٦٣.
(٢) انظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجه، السندي ٤٣٧/١، دار الجيل بيروت، ط: د، ت: د.
(٣) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما جاء في العلم... ٢٣/١ رقم ٦٣.
(٤) انظ الكواكب الدراري، الكرماني ١٨/٢.
(٥) انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة بني المصطلق... ١١٦/٥ رقم ٤١٣٩.
(٦) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٤٢٨/٧، وعمدة القاري، العيني ١٩٩/١٧.

وقريش مغتمة، يترقبون ما يحل بهم، فجاء أبوسفيان إلى رسول الله ﷺ فقال:» أُبِيحَتْ خَضْرَاءُ قُرَيْشٍ، لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ» فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ، وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ[1] وحين سمع أبوسفيان تلك المقولة أثناء استعراض جيش المسلمين، ومرور كتيبة الأنصار به: «يَا أَبَا سُفْيَانَ، الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ، الْيَوْمَ تُسْتَحَلُّ الْكَعْبَةُ»[2] أي أنه يوم حرب لا خلاص منه، ويوم مقتلة عظمى[3] شكى ذلك للرسول ﷺ، وأبلغه بما سمع، فما كان من نبي الرحمة ﷺ إلا أن خطّأ تلك المقوله، وخاطبه ﷺ بقوله: ««وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللَّهُ فِيهِ الْكَعْبَةَ، وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الْكَعْبَةُ»[4].

وعلى الرغم مما ألحقوه به ﷺ وبدعوته، ومن قدرة جيش المسلمين وقتئذ على المحاسبة والعقاب بل والانتقام، إلا أنه جاء إعلان الأمان والعفو العام للناس سوى نفر قليل، فأضحى ذلك اليوم يوم المرحمة والإعزاز، بدلًا من يوم الحرب والإذلال، وذلك من آثار ونتائج رحمته ﷺ كيف لا! وهو نبي الرحمة المبعوث رحمة للعالمين[5].

خامسًا رحمته ﷺ بعيادة الغلام اليهودي ودعوته إلى الإسلام:

ورد في الحديث أن غلامًا يهوديًا كان يخدم النبي ﷺ فمرض، «فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ»، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ «كالمستشير له في طاعة ما أمر به»[6] فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ،

(١) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، فتح مكة ٣/١٤٠٥ رقم ١٧٨٠.
(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح ٥/١٤٦ رقم ٤٢٨٠.
(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٨/٨، وإرشاد الساري، القسطلاني ٦/٣٩١.
(٤) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح ٥/١٤٦ رقم ٤٢٨٠.
(٥) انظر: إرشاد الساري، القسطلاني ٦/٣٩١، وفتح الباري، ابن حجر ٨/٩، والسيرة النبوية الصحيحة، د .أكرم العمري ٢/٤٧٨ ٤٨١، مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة، ط: السادسة، ١٤١٥هـ.
(٦) دليل الفالحين، محمد الشافعي ٦/٣٧٥، اعتنى به: خليل شيحا، دار المعرفة بيروت، ط: الرابعة، ١٤٢٥هـ.

فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»[١] فمن شفقته ورحمته ﷺ عيادته، ودعوته وفرحه بإسلام هذا الغلام الذي شارف على الهلاك، وفي ذلك «إظهار محاسن الإسلام، وزيادة التآلف بهم ليرغبوا في الإسلام»[٢].

سادسًا: رحمته ﷺ في موقف وفاة عبدالله بن أبيّ:

وكما مر في الأمثلة والنماذج السابقة أن رحمة النبي ﷺ ورأفته في قوله وفعله مع المخالف، أيًا كان توجهه ومعتقده ظاهرة بيّنة، فهذا عبدالله بن أبيّ الذي نزل فيه قرآن يتلى، وسطرت كتب السير والتاريخ ما ألحقه من أذى برسول الله ﷺ ودعوته، ومع ذلك نجد نبي الرحمة ﷺ يتعامل مع الموقف بالرحمة المعهودة، فقد ورد «أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ لَمَّا تُوُفِّيَ، جَاءَ ابْنُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْطِنِي قَمِيصَكَ أُكَفِّنْهُ فِيهِ، وَصَلِّ عَلَيْهِ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُ، فَأَعْطَاهُ النَّبِيُّ ﷺ قَمِيصَهُ...»[٣].

وفي هذا الصدد قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنما فعل النبي مع عبدالله بن أبي ما فعل لكمال شفقته على من تعلق بطرف من الدين، ولتطييب قلب ولده عبدالله الرجل الصالح، ولتألف قومه من الخزرج لرياسته فيهم، فلو لم يجب سؤال ابنه، وترك الصلاة عليه قبل ورود النهي الصريح؛ لكان سبة على ابنه وعارًا على قومه، واستعمل أحسن الأمرين في السياسة إلى أن نهي فانتهى»[٤] وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قيل إنما أعطاه قميصه وكفنه فيه تطييبًا لقلب ابنه فإنه كان صحابيًا صالحًا، وقد سأل ذلك فأجابه إليه...، وفي هذا الحديث بيان عظيم مكارم أخلاق النبي ﷺ فقد علم

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات... ٢/٩٤ رقم ١٣٥٦.
(٢) عمدة القاري، العيني ٨/١٧٥.
(٣) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الكفن في القميص... ٢/٧٦ رقم ١٢٦٩.
(٤) تحفة الأحوذي، المباركفوري ٨/٣٩٨، وانظر: معالم السنن، الخطابي ١/٢٩٨، وشرح صحيح البخاري، ابن بطال ٣/٢٦٣، وفيض الباري، محمد شاه ٣/١٨ ١٩.

ما كان من هذا المنافق من الإيذاء، وقابله بالحسنى فألبسه قميصًا كفنًا ...»[1].

وهكذا فإن «علامة الرحمة الموجودة في قلب العبد: أن يكون محبًا وصول الخير لكافة الخلق عمومًا، وللمؤمنين خصوصًا، كارهًا حصول الشر والضرر عليهم، فبقدر هذه المحبة والكراهه تكون الرحمة»[2].

(١) شرح صحيح مسلم، النووي ١٥/١٦٧، وانظر: عمدة القاري، العيني ٨/٥٥.
(٢) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار، السعدي ١٨٩.

الخاتمة

يتبين من خلال هذا البحث رحمة النبي ﷺ في خطابه مع المخالف، وكيفية معالجته لتلك المواقف والأحداث، مما يعطي دلالة واضحة، ومؤشرًا قويًّا على ما يتسم به منهج الإسلام من الرحمة، والشفقة في التعامل مع الناس على اختلاف أصنافهم وأديانهم. ويؤكد ذلك ويعززه على سبيل المثال ما حصل مع أهل مكة، فعلى الرغم من شدة وقسوة ما لاقاه وأتباعه منهم، فإنه ﷺ عاد إليهم خلال سنوات منتصرًا فاتحًا رحيمًا، غير ناقم، ناشرًا للرحمة والخير والسلام لمن آذوه وأخرجوه من وطنه.

كما تمت الإشارة إلى أن الرحمة والإحسان وحب الخير للناس عمومًا من المسلمين وغير المسلمين مأمور به شرعًا، ولا تعارض بينه وبين التودد المذموم المنهي عنه.

وتبيّن أيضًا من خلال ما رصدته ولاحظته في ثنايا هذا البحث الآثار الإيجابية للخطاب والممارسة العملية الرحيمة على المدعوين، والناس عمومًا.

ويظهر أيضًا من خلال ما ورد في هذا البحث من أمثلة ونماذج رائعة، وغيرها في السيرة كثير، أنها ليست مجرد أمثلة بل بالإمكان أن تكون

منهج حياة ومصدر سعادة، ليس للمسلمين فحسب، بل للبشرية ككل، فعظمة هذا التاريخ النبوي، وسيرته العطرة، يجب أن تكون مصدر فخر واعتزاز للمسلمين عامة، ولحملة العلم، والدعاة إلى الإسلام، والمثقفين خاصة؛ بفهمها الفهم المتكامل، وتبليغها بالحسنى.

وأخيرًا مما يوصى به في ختام هذا البحث ما يلي:

- أن يبذل علماء الأمة ودعاتها ومثقفيها المزيد من الجهد لتأكيد ما يحمله الإسلام من رحمة ورأفة للبشرية جمعاء، ودراسة الظواهر المخالفة لذلك، وما يثار من اتهامه وأتباعه بالقسوة والعنف؛ جراء ممارسات خاطئة غير مسؤولة، أو اتخاذ مواقف سلبية مسبقة دون نظر أو تمحيص، والسعي لمعالجتها وفق منهج علمي رصين.
- إجراء دراسات ميدانية على الخطاب الموجه للمخالف، والتعامل معه في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، ومقارنتها بما حصل في العهد النبوي.
- مدى إمكانية إجراء دراسات تقييمة على الخطباء والوعاظ والإعلاميين؛ لرصد طبيعة الخطاب الموجه للمخالف خصوصًا، وما يحتويه من مظاهر الرحمة وخلافها.
- عقد برامج ودورات تدريبية للخطباء والوعاظ، ومن يتولى توجيه الناس والتعامل معهم؛ للإسهام في تعزيز هذه القيم وتحويلها لواقع معاش في حياتهم.
- القيام بأبحاث تخاطب الآخرين بلغتهم، كعقد مقارنات بين الرحمة في خطاب النبي ﷺ مع المخالف، وما يقابلها في تلك الحقبة وغيرها لدى الثقافات الأخرى.

قائمة المصادر المراجع:

١. القرآن الكريم
٢. الأدب النبوي، محمد الخولي، دار المعرفة بيروت، ط: الرابعة، ١٤٢٣هـ.
٣. إستراتيجات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبدالهادي الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة بيروت، ط: الأولى، ٢٠٠٤م.
٤. أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي معوض وزميله، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥هـ.
٥. الأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية دراسة تأصيلية على ضوء الواقع العاصر، د. عبدالرحيم المغذوي، دار الحضارة للنشر والتوزيع الرياض، ط: الثانية، ١٤٣١هـ.
٦. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، تحقيق: عادل عبدالموجود وزميله، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥هـ.
٧. أصول الدعوة، عبدالكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط: التاسعة، ١٤٢١هـ.
٨. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي، دار الفكر بيروت، ط: د، ١٤١٥هـ.
٩. إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء مصر، ط: الأولى، ١٤١٩هـ.
١٠. بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، السعدي، تحقيق: عبدالكريم الدريني، مكتبة الرشد، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ بيروت، ط: الأولى، ١٤٠٣هـ

١١. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، تحقيق: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: الأولى، ١٤١٨هـ.
١٢. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، دار الكتب العلمية بيروت، ط: د، ت: د.
١٣. التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، تحقيق: د. عبدالله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم بيروت، ط: الأولى، ١٤١٦هـ.
١٤. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي سلامة، دار طيبة، ط: الثانية، ١٤٢٠هـ.
١٥. جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط: الأولى: ١٤٢٠هـ.
١٦. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وزميله، دار الكتب المصرية القاهرة، ط: الثانية، ١٣٨٤هـ.
١٧. حاشية السندي على سنن ابن ماجه، دار الجيل بيروت، ط: د، ت: د
١٨. حاشية السندي على سنن النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية حلب، ط: الثانية، ١٤٠٦هـ.
١٩. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، دار الفكر بيروت، ط: د، ت: د.
٢٠. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد علي الشافعي، اعتنى به: خليل شيحا، دار المعرفة بيروت، ط: الرابعة، ١٤٢٥هـ.
٢١. رحمة الله أسبابها وآثارها، د. مسفر الغامدي، مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٤٥ ربيع الأول إلى جمادى الثانية ١٤١٦هـ، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء المملكة العربية السعودية.
٢٢. الرحمة في سيرة المصطفى ﷺ، أ. د. حصة الزيد، دار التدمرية، الرياض، ط: الأولى، ١٤٣٥هـ.

٢٣. الرحمة في حياة الرسول ﷺ، أ.د. راغب السرجاني، رابطة العالم الإسلامي: المركز العالمي للتعريف بالرسول ﷺ ونصرته الرياض، ط: الثانية، ١٤٣١هـ.

٢٤. الرسول الإنسان إنسانيته مع غير المسلمين، د. صالح الزهراني، ديبونو للنشر، الأردن، ط: الأولى، ٢٠١١م.

٢٥. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، تحقيق: علي عطية، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥هـ

٢٦. سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط: الثالثة، ١٤٠٥هـ.

٢٧. السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، د.أكرم العمري، مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة، ط: السادسة، ١٤١٥هـ.

٢٨. شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبدالباقي، تحقيق: طه سعد، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ط: الأولى، ١٤٢٤هـ.

٢٩. شرح السنة، البغوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد الشاويش، المكتب الإسلامي دمشق، بيروت، ط: الثانية، ١٤٠٣هـ.

٣٠. شرح صحيح البخاري، ابن بطال، تحقيق: أبو تميم، مكتبة الرشد الرياض، ط: الثانية، ١٤٢٣هـ.

٣١. صحيح البخاري، البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٢. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، رقمه: محمد عبدالباقي، صححه وأشرف على طباعته: محب الدين الخطيب، دار المعرفة بيروت، ١٣٧٩هـ.

٣٣. صحيح مسلم، مسلم، تحقيق: محمد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: د، ت: د.
٣٤. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن رجب، تحقيق: محمد عبدالمقصود وآخرون، مكتبة الغرباء الأثرية المدينة النبوية، ط: الأولى، ١٤١٧هـ.
٣٥. الفروق، القرافي، عالم الكتب بيروت، ط.د، ت.د .
٣٦. فقه التعامل مع المخالف، د. عبدالله الطريقي، دار الوطن الرياض، ط: الأولى ١٤١٥هـ.
٣٧. فيض الباري على صحيح البخاري، محمد أنور شاه، تحقيق: محمد الميرتهي، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٦هـ.
٣٨. فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين محمد المناوي، المكتبة التجارية الكبرى مصر، ط: الأولى، ١٣٥٦هـ
٣٩. القاموس الفقهي لغة واصطلاحًا، د.سعدي أبو جيب، دار الفكر- دمشق، ط: الثانية، ١٤٠٨هـ.
٤٠. القاموس المحيط، الفيروز آبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد العرقسوسي، مؤسسة الرسالة بيروت، ط: الثامنة، ١٤٢٦هـ.
٤١. كتاب التعريفات، الجرجاني، تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية.
٤٢. كتابة البحث العلمي صياغة جديدة، عبدالوهاب أب وسليمان، دار الشروق، ط: السادسة، ١٤١٦هـ.
٤٣. الكواكب الدراي في شرح صحيح البخاري، الكرماني، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: الثانية، ١٤٠١هـ.
٤٤. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت، ط: الثالثة، ١٤١٤هـ.

٤٥. محاسن التأويل، القاسمي، تحقيق: محمد السود، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤١٨هـ.
٤٦. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، تحقيق: عبدالسلام محمد، دار الكتب العلمية بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ.
٤٧. مختار الصحاح، الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية بيروت، صيدا، ط: الخامسة، ١٤٢٠هـ.
٤٨. المدخل إلى إعدد البحوث والرسائل الجامعية في العلوم الاجتماعية أ.د. عبدالله الوليعي، توزيع مكتبة جرير، ط: الأولى، ١٤٣٣هـ.
٤٩. المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية، د. صالح العساف، شركة العبيكان للطباعة الرياض، ط: الأولى، ١٤٠٩هـ.
٥٠. المدخل إلى علم الدعوة، د. محمد البيانوني، مؤسسة الرسالة بيروت، ط: الثالثة، ١٤٣٤هـ.
٥١. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد الهروي، دار الفكر بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ.
٥٢. مظاهر الرحمة للبشر في شخصية النبي محمد ﷺ، محاضرات: د. سارة آدم، إعداد: أ.د. زيد العيص، رابطة العالم الإسلامي: المركز العالمي للتعريف بالرسول ﷺ ونصرته الرياض، ط: الثالثة، ١٤٣١هـ.
٥٣. معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٠هـ.
٥٤. معالم السنن شرح سنن أبي داود، الخطابي، المطبعة العلمية حلب، ط: الأولى، ١٣٥١هـ.
٥٥. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان الداوودي، دار القلم، الدار الشامية دمشق، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٢هـ.

٥٦. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى وآخرون) دار الدعوة، ط: د، ت: د.
٥٧. معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الفكر، ط: د، ١٣٩٩هـ.
٥٨. مفاتيح الغيب، الرازي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: الثالثة، ١٤٢٠هـ.
٥٩. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تحقيق: محمد مستو وآخرون، دار ابن كثير دمشق، ط: الأولى، ١٤١٧هـ.
٦٠. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، تحقيق: طاهر الزاوي وزميله، المكتبة العلمية بيروت، ط: د، ١٣٩٩هـ.
٦١. نيل الأوطار، الشوكاني، تحقيق: عصام الصبابطي، دار الحديث مصر، ط: الأولى، ١٤١٣هـ.
٦٢. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي، تحقيق: صفوان داوودي، دار القلم الدار الشامية دمشق، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٥هـ.

هذا الكتاب منشور في